من معجزات القـــرآن

تفسير الآيات الأولى من سورة الروم

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

لابد لتفسير الآيات الكريمة التي افتتحت بها سورة الروم من مقدمة تاريخية تبين الحوادث التي أشارت إليها هذه الآيات .

— ١ —

كان غربيّ آسيا ، في جملته ، متنازعاً بين الدول الفارسية المختلفة التي قامت في إيران وبين الدول الأوربية التي مدّت سلطانها إلى آسيا . وقد استمر النزاع في هذه البقاع قروناً كثيرة أكثر من ألف عام .

فدولة الأكينيين ، الدولة الفارسية الأولى التي أقامها كورش في منتصف القرن السادس قبل الميلاد وأزالها الإسكندر المقدوني حوالي سنة ٣٣٠ ق م ، هذه الدولة نازعت دول اليونان حقباً ، وحروب داريا وخلفائه في آسيا الصغرى وبلاد اليونان معروفة مشهورة .

والدولة الأشكانية التي نشأت في إيران بعد الإسكندر حاربت الرومان في هذه البقاع عصوراً طويلة .

والدولة الساسانية التي قامت في إيران سنة ٢٢٦ م وبقيت حتى أزالها الفتح الإسلامي نازعت الرومان ودولة الروم الشرقية التي تسمى الدولة البيزنطية ودام بينهما النزاع إلا فترات قصيرة حتى زالت الدولتان كلتاهما عن آسيا بالفتوح الإسلامية .

— ٢ —

والحادثات التي تشير إليها فاتحة سورة الروم هي خاتمة الجلاد الطويل والحروب المتمادية بين الدولتين .

وخلاصة هذه الحادثات على طولها واضطرابها فيما يأتي :

كسرى برويز حفيد كسرى أنو شروان ، من أعظم ملوك الفرس وهو آخر ملوكهم العظام . ولي الملك سنة ٥٩٠ م بعد قتل أبيه هرمز أثناء ثورة قائد فارسي عظيم إسمه بهرام چوبين .

ولما تولى برويز العرش حاول إصلاح هذا القائد فاستعصى عليه وحاربه حتى اضطره إلى دخول مملكة الروم ، وقد استنجد الأمبراطور موريس فأمدّه بجند رده إلى عرشه فاستحكمت المودة بين الملكين . فلما قتل موريس سنة ٦٠٢ م شن كسرى الحرب على فوكاس خليفة موريس . وتوالت وقائع زلزلت دولة الروم الشرقية زلزالا شديداً .

توالت هزائم الروم في آسيا الصغرى والجزيرة وشمالي الشام حتى فزع الروم ، واستغاثوا هرقل (هركليوس) ابن والي أفريقية فأقبل إلى القسطنطينية فاختير إمبراطوراً مكان فوكاس .

وحاول هرقل جهده أن يصد الفرس ، ولم يدخر وسعاً في حربهم فلم يستطع لهم رداً . وامتدت فتوح الفرس إلى الجنوب حتى استولوا على دمشق سنة ٦١٤ واتخذوها مركزاً سيروا منه الجيوش إلى أرجاء مختلفة حتى فتحوا بيت المقدس بجيوش جرارة فيها ستة وعشرون ألفاً من اليهود وبلغت كبرياء كسرى غايتها فأخذ الصليب الذي يزعم النصارى أن المسيح صلب عليه ، وكتب إلى هرقل كتاباً خلاصته :

« من كسرى پرويز رب الأرباب إلى عبده الحقير هرقل . تزعم أنك تعتمد على المسيح فلماذا لا يخلص المسيح بيت المقدس من يدي . ولماذا لم ينقذ نفسه من أيدي اليهود حينما صلبوه » .

ثم امتد الفتح إلى مصر فظفر بها الفرس بعد تسعة قرون من خروجهم منها أيام الإسكندر المقدوني .

وفي العام التالي صمم الفرس على فتح القسطنطينية ولم يكن بينهم وبينها إلا المضيق ، وحالفوا الأوار على أن يغزوها من نواحيها .

وزاد أمر الروم اضطراباً ، وبلغ يأسهم أن عزم هرقل على الفرار إلى قرطاجة لولا أن عرف الروم أمره فثار الناس واستحلفه البطريق في كنيسة آياصوفيا ألا يبرح المدينة على أية حال .

في أثناء هذه الهزائم المتوالية الماحقة التي توالت على الروم عشرين عاماً ، وحوالي سنة ٦١٥ حينما غلب الروم في أدنى الأرض

إلى بلاد العرب ، فى أرض الشام وهى الهزائم التى أهمت العرب نزلت الآية الكريمة :

ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين الخ . وكان خبراً عجيباً ، أنكره مشركو العرب حتى راهنوا على كذبه .

روى الطبرى وغيره أن أبا بكر رضى الله عنه راهن أبيّ بن خلف على خمس إبل إلى خمس سنين فأمره الرسول صلوات الله عليه أن يزيد فى الرهان ويمد الأجل فراهنه على مائة ناقة إلى تسع سنين .

— ٣ —

فى سنة ٦٢٢ أعد هرقل العدد لحرب الفرس ، وتحمس النصارى لمجاهدة العدو الذى استولى على بيت المقدس وأخذ الصليب الحقيقى — وحقر النصرانية وسفه عليها هذا السفه ، وبذل القساوسة الجهد حتى صهروا آنية الكنائس من الذهب والفضة يتخذونها عدة للحرب .

ولم يكن لهرقل بقية من أمل إلا فى أسطول بقى لهم ، فأبحر فى جيش والفرس مشرفون على الخليج ينظرون إليه حتى نزل فى أسوس على ساحل الأناضول .

وكان هذا أول انتصار للروم بعد موت موريس أى منذ عشرين عاماً .

ثم توالى النصر فى آسيا الصغرى وأرمينية إلى أن عبر هرقل الفرات شطر الغرب والجنوب سنة ٦٢٥ .

وحاول كسرى برويز أن يوقع بالروم فى حاضرة ملكهم ، فحالف الأوار وسير جيشاً لمحاربة هرقل وآخر لحصار القسطنطينية سنة ٦٢٦ مع الأوار . فلقى الجيشان كلاهما الخيبة والهزيمة .

وأغرى هرقل الظفر المتتابع فعزم على أن يغزو كسرى فى مدينته دستكبرد وهى على تسعين ميلا إلى الشمال من المدائن عاصمة الدولة . وكانت وقعة الزاب فى ١٢ ديسمبر سنة ٦٢٧ ثم فر كسرى ، وقابلته العاصمة بالثورة عليه وخلعه . ثم حبس فى بيت الظلام ولا زاد إلا الخبز والماء . وبالغ ساجنوه فى إهانته . وقتل كثير من أولاده أمامه ثم قتل هو قتلة فظيعة . وذلكم كسرى برويز الذى أرسل إليه رسول الله كتاباً فمزقه « فقال اللهم مزق ملكه كل ممزق » .

وخلفه على العرش ابنه شيرويه (قباذ الثانى) فصالح الروم على أن يرد إليهم كل ما فتح الفرس من البلاد التى فى سلطان الروم ، وعلى أن يرد الصليب . وقد سار هرقل بالصليب إلى بيت المقدس فوضعه مكانه فى شهر سبتمبر سنة ٦٢٩ . وكان يوماً عند النصارى مشهوداً ، وتمت الغلبة للروم .

كان انتصار الفرس فى الشام حوالى سنة ٦١٥ وبعد بضع سنين شرع الروم يهزمونهم سنة ٦٢٢ وتوالت عليهم الهزائم حتى قتل برويز وصالح ابنه مصالحة الغلوب على أمره .

وذلك تأويل الآية الكريمة : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

ونرجع إلى رهان أبى بكر وأبيّ بن خلف .

روى أن أبا بكر حين هاجر أخذ عليه كفيل وأنه حين انتصر الروم أخذ الرهن من أولاد أبيّ بن خلف .

وهنا نقول : لماذا اهتم العرب بحوادث الروم والفرس ولماذا أنزل فيها قرآن ؟ يقول المفسرون إن مشركى العرب فرحوا بانتصار الفرس وهم أصحاب أوثان كالعرب المشركين وبانهزام الروم وهم أهل كتاب كالمسلمين ، وقالوا للمسلمين ستغلبكم كما غلب الفرس الروم . فاهتم المسلمون وأخبروا رسول الله فنزلت الآية الخ .

ولا أحسب أن اهتمام العرب بالأمر كان لهذا بل أحسب ، والله أعلم ، أن العرب قلقوا لغلبة الفرس على الشام وهى منقلبهم للتجارة ، وقد ألفوا الروم فيها ، واتصلوا بهم بالتجارة وغيرها واتخذوا من عامتهم وخاصتهم أصدقاء وأعواناً ، وتجاراً يعاملونهم ويبايعونهم ، فكان الروم أقرب إلى عرب الحجاز ومن يتصل بهم من قبائل الشام وفلسطين ، وكانت العرب بهم أعرف ، وبينهم وبين الروم من الأسباب ، ولهم فيهم من المنافع ما جعلهم يشفقون من غلبة الفرس على الشام ، وزوال سلطان الروم عنها ، ثم كان مع انهزام الروم انهزام حلفائهم وأنصارهم من عرب الشام ولهم بعرب الحجاز صلات .

(يتبع)

عبد الوهاب عزام